اللغة : مفهومها ووظائفها ومستويات التعبير بها

مقدمة:

تعد اللغة أرقى ما لدى الإنسان من مصادر القوة والتفرد ، ومن المتفق عليه الآن أن الإنسان وحده – دون غيره من أعضاء المملكة الحيوانية – هو الذى يستخدم الأصوات المنطوقة فى نظام محدد لتحقيق الاتصال بأبناء جنسه. فاللغة وحدها هى التى تميز هذا الكائن المتفرد عن غيره من مخلوقات الله. ونسب إلى أرسطو قديماً قوله :"إن الإنسان حيوان ناطق". ولعلَّ المقصود من هذا الوصف أن الإنسان وحده القادر على ترجمة أفكاره ومشاعره إلى ألفاظ وعبارات مفهومة لدى أبناء مجتمعه وعشيرته.

من هنا تعتبر اللغة، وعلى حد تعبير د. جمعة يوسف (١٩٩٠)، أساس الحضارة البشرية، وتمثل الوسيلة الرئيسية التى تتواصل بها الأجيال، وعن طريقها تنتقل الخبرات والمعارف والمنجزات الحضارية بمختلف صورها ، وعن طريقها ، أيضاً، لا ينقطع الإنسان عن الحياة بموته، ذلك أن اللغة تعينه على الامتداد تاريخياً ليسهم فى تشكيل فكر وثقافة وحياة الأجيال التالية.

تعريفات اللغة :

حاول عديد من العلماء والباحثين تحديد المقصود بكلمة لغة "Language" ووضعوا عديداً من التعريفات لهذه الكلمة يذكر بعضها الدكتور بركات عبد العزيز على النحو التالى[١]:

- اللغة نسق من الرموز الصوتية التى شاعت وانتشرت بوسائل شتى ليتعامل بها الأفراد.
- اللغة مجموعة الإجراءات الفسيولوچية والسيكولوچية التى فى حوزة

الإنسان لتمكنه من الكلام.

- اللغة هى وظيفة التعبير اللفظى عن الفكر سواء أكان داخلياً أم خارجياً.
- اللغة هى استعمال وظيفة التعبير اللفظى عن الفكر فى حالة معينة، فيقال: فلان يستعمل لغة غامضة، وفلان يتكلم بلغة العقل.
- اللغة كل نظام من العلاقات الدالة يمكن أن يستخدم كوسيلة اتصال.
- وهناك من يرى أن اللغة هى القدرة على اختراع العلامات الدالة أو استعمالها قصداً أو عمداً(٢).
- واللغة أيضاً هى نظام موضوع من العلامات بين رموز منطوقة فى ثقافة معينة للتعبير عن معنى معين.
- وهى مجموعة علامات ذات دلالة جمعية مشتركة ممكنة النطق من كل أفراد المجتمع المتكلم بها، أو ذات ثبات نسبى فى كل موقف تظهر فيه، ويكون لها نظام محدد تتآلف بموجبه حسب أصول معينة ، وذلك لتركيب علاقات أكثر تعقيداً.

خصائص اللغة :

عمد بعض الباحثين إلى وضع عدد من الخصائص التى تميز اللغة الإنسانية عن غيرها، لخصها د. جمعة يوسف (١٩٩٠) على النحو التالى:

١- تتسع لغة الإنسان للتعبير عن تجاربه وخبراته ومعارفه.

٢- اللغة الإنسانية رموز عرفية (اصطلاحية) غير مباشرة.

٣- لدى الإنسان وعى بالعلامات التى يستخدمها قصداً على أنها وسائل لتحقيق الأغراض.

٤- يستخدم الإنسان اللغة فى التعبير عن الأشياء العيانية (هذا كتاب)،

كما يستخدمها فى التعبير عن الأشياء المجردة (دماء الشهداء تغذى شجرة الحرية).

٥- يستخدم الإنسان اللغة فى التعبير عن أشياء أو أحداث معينة عن المتكلم زماناً (انتصر المسلمون فى غزوة بدر الكبرى)، ومكانا (بيت الله الحرام فى مكة).

٦- يعمم الإنسان الألفاظ التى يستخدمها فى الإشارة إلى أشياء متشابهة (إذا تعلم الإنسان أن ذلك الشكل المستطيل ذا الأربع أرجل، الذى نجلس إليه وبه أدراج يسمى مكتبا، فإنه يشير إلى الأشياء المشابهة فى المواقف المختلفة بالاسم نفسه).

٧- لغة الإنسان مركبة، تتألف من وحدات، ومن قواعد لتأليف الوحدات (حروف، كلمات جمل، ... إلخ).

٨- يستطيع الإنسان أن يستبدل كلمة بكلمة فى منطوق معين إذا تغير الموقف (مثال: ضرب محمدٌ عليا، فإذا تغير الموقف وتمكَّن علىّ من محمد نقول: ضرب علىٌ محمدا).

٩- لغة الإنسان محكومة بقواعد يفرضها عليه المجتمع الذى ينتمى إليه (فلم نر فى اللغة العربية أحدا ينصب الفاعل مثلا، أو يكوِّن صيغ الجمع حسب ما يراه).

١٠- تتنوع لغة الإنسان بتنوع الجماعات التى تستخدمها بفعل عاملى الزمان والمكان.

١١- يكتسب الإنسان لغته من المجتمع الذى يعيش فيه.

ويرى «تشومسكى» - كما يشير د. جمعة يوسف - أن اللغة الإنسانية تتميز بعدة خصائص إضافية، وذلك على النحو الآتى:

١- **الازدواجية:** تحتوى أى لغة إنسانية على مستويين من حيث البنية: مستوى تركيبى يتضمن عناصر ذات معنى، تتألف وتتوافق فيما بينها لتؤلف الجمل فى السياق الكلامى والمستوى الصوتى.

٢- **التحول اللغوى:** والمقصود به مقدرة الإنسان على أن يتكلم بواسطة اللغة عن الأشياء والأحداث عبر الأزمنة والمسافات.

٣- **الانتقال اللغوى:** تُكْتسب اللغة الإنسانية وتُعلّم، وعبر الارتقاء يكتسب الطفل طرائق التعبير اللغوى وتركيب الجمل، ويحيط بمفردات لغته، وبعدها يستطيع الطفل استعمال لغته بصورة خلاقة، وبالتالى تنتقل من جيل إلى جيل.

٤- **الإبداعية فى اللغة:** وتعتبر من أهم خصائص اللغة، حيث تتكون اللغة الإنسانية من تنظيم كلامى مفتوح غير مغلق، يسمح بإنتاج وفهم عدد غير محدود من الجمل التى لم يسبق للفرد سماع الكثير منها من قبل، ومن الواضح أنها ترتبط بتنظيم قواعد لغوية تتيح لمن يدركها استخدام اللغة بطريقة إبداعية. ويتصف المظهر الإبداعى بما يلى:

(أ) أن الاستعمال الطبيعى للغة، هو استعمال متجدد وليس ترديداً لما سبق أن سمعناه.

(ب) لا يرتبط استعمال اللغة بأى منبه ملحوظ خارجياً كان أم داخلياً وبالتالى، فاللغة أداة الفكر والتعبير.

(جـ) يظهر الاستعمال تماسك اللغة وملاءمتها لكافة ظروف المتكلم.

اللغة والكلام:

يرى العالم السويسرى (فرديناند دى سوسيير) أن ما نسميه " لغة " يتخذ مظهرين مختلفين: أحدهما واقعى والآخر ذهنى، وقد أطلق على الأول الكلام وعلى الثانى اللغة، ويشير د. بركات عبد العزيز إلى أن الكلام عند سوسيير هو ما

يحدث فعلاً من أصوات لغوية صادرة من إنسان، أما اللغة فهى مجموعة الصور الذهنية التى توجد فى عقل جماعة من الجماعات والتى يمكن أن تخرج إلى الوجود على شكل كلام، ويرى أن الصورة الذهنية هى فى الواقع صورتان: صورة اللفظ أى كيفية النطق، وصورة الدلالة وهى فهم معنى اللفظ، ومجموع هاتين الصورتين هو ما يسميه دى سوسيير باسم الرمز اللغوى.

وبصفة عامة يمكن التمييز بين اللغة والكلام على الأسس الآتية:-

١- يرتبط الكلام باللغة ويتحقق كنتيجة لاستعمال اللغة. ويمكن اعتبار الكلام بمثابة عمل أو مظهر لغوى محدد.

٢- اللغة واقع اجتماعى ثابت، بينما الكلام عمل فردى متغير.

٣- اللغة هى نتاج يرثه الفرد تقريباً (يعقل من خلال الاكتساب)، بينما الكلام عمل إرادى يتسم بالذكاء يقوم به الفرد.

٤- اللغة هى الجزء الاجتماعى من عملية الكلام فهى تكمن خارج نفوذ الفرد الذى لا يستطيع أن يعدلها، وبالتالى يمكن أن تدرس مستقلة عنه.

٥- بما أن اللغة ظاهرة اجتماعية والكلام ظاهرة فردية، فإن الآليات اللازمة لتفسير الجمل متماثلة لدى كل الأعضاء فى المجتمع اللغوى.

٦- اللغة كامنة أو سلبية، وبالتالى فإن كل الأنشطة المرتبطة باللغة تنتمى إلى الكلام. (د. جمعة يوسف ١٩٩٠).

اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة:

يتحقق الاتصال اللفظى فى شكلين متميزين: أحدهما الصورة المنطوقة (أو لغة الحديث)، والآخر هو الصورة المكتوبة(*) (أو لغة الكتابة). وربما كانت اللغة

(*) تشمل التفرقة بين اللغة المنطوقة والمكتوبة التفرقة بين العامية والفصحى؛ فالأولى توجد فى صورة منطوقة غالباً، وتعتبر الثانية لغة الكتابة (وهو وضع يكاد يكون عاماً فى مجتمعنا العربى).

عامية المثقفين، وعامية المتنورين، وعامية الأميين. وهذا التقسيم قائم على أساس الظروف التى يستخدم فيها كل مستوى، ويمكن للفرد الواحد (المثقفين والمتنورين خاصة) أن ينجح فى استخدام المستويين بكفاءة.

وظائف اللغة:

للغة وظائف متعددة، حاول العديد من العلماء والباحثين تحديدها وتصنيفها؛ إذ يرى علماء الفكر والفلسفة أنها وسيلة للتوصيل، ومساعد آلى للتفكير وأداة للتسجيل والرجوع.

ويرى أولبرت، على النحو الذى أشار إليه محمد على الأصفر (١٩٩٨)، أن للغة وظائف اجتماعية يمكن حصرها فيما يلى:-

(أ) أنها تجعل للمعارف والأفكار البشرية قيماً اجتماعية.

(ب) تسهم اللغة فى الاحتفاظ بالتراث الثقافى والتقاليد الاجتماعية من جيل إلى جيل.

(ج) اللغة تسهم فى تعليم الفرد وتكييف سلوكه بما يلائم سلوك وتقاليد المجتمع الذى يعيش فيه.

(د) اللغة تزود الفرد بأدوات التفكير، وما توصل إليه المجتمع البشرى من تطور وتقدم حضارى.

أما (بوهلر)، وهو عالم لغوى بارز، فيرى أن للغة ثلاث وظائف أساسية وهى وظائف اعتمدها العالم الروسى (ياكوبسون) وأكد عليها، والوظائف الثلاث هى:

أولاً- الوظيفة التعبيرية :

والتى يعبر فيها الكاتب أو المتكلم عن مشاعره، بغض النظر عن الاستجابة، وتظهر هذه الوظيفة فى الشعر الغنائى، والأدب القصصى والمسرحى، إضافة إلى البيانات الرسمية كالمراسلات والوثائق السياسية أو القانونية والأعمال الفلسفية العلمية الموثقة.